رحيل الى آخر الليل (١) !

علي الجندي

... في الشارع تزدحم الخطوات ويفترق الاصحاب وتكثر أوجه « من أهوى » !
تركض آلاف الذرّات ملونة ،
وتفيق الاصوات العالقة ببلور الواجهة الممتدة حتى آخر باب في « جلنق » ،
يصحو الجبل الاجرد من نوم طال. ويرجع للنوم!
يتقابل وجهان على منعطف . ويحدّق كل في قسمات الآخر دون كلام !
تنزلق النظرات وتهطل نحو الارض مكوّنة مستنقع صمت أصغر من نصف الليرة ...
يصطدم قطاران من اللحم على ناصية ،
ينفلتان عن الخط و .. يبتعدان ،
يتراشق بالقبلات « يزيد » و « تورا » (٢) ..
ينعست « بردى » للقصف ويحزن ،
ثم يغيّر مجراه ويعطي كل دماه للاثنين ،
ويمضي محتضرا مسودّ الوجه الى «الغوطة» !
يتلفت كالمأخوذ ويموت على كتف الحانية الصحراء !...

* * *

.. الشجر العاقر فوق رصيفي شارعنا .
يتمنى مطرا يغسله من آثار النفط ولون الطين على الاوراق ،
يتحادث ـ اذ ترعشه النسمة أو تحرقه الشمس ـ بصوت مهموس :
ـ .. يا جارتي الدلبة ، مرت بي في آخر هذا الليل البارد سياره ،
تحمل موسيقى وأرانب وطيورا وعروسين من المرمر ،
لم تتوقف قربي ،
بحثت عن ظل آخر في أرض أخرى !
و .. حزنت ،
بكيت بخمس وريقات صفراء ..
ـ .. وانا استندت عند الظهر الى جذعي بنت تلبس ثوبا أبيض ، فنهاها صاحبها وبكى لتلوث محزمها باللون الاسود ، فرثيت له وبكيت عليه !
ـ .. لا أدري كيف مضى فصل الخضرة هذا العام ولم تنبت في أغصاني العجفاء زهور ،
جاء الصيف ولم أثمر ،
والآن يداهمنا تشرين ..
ـ .. يا جارتي البلهاء لو انك تدرين ،
ستمرّ فصول السنة وانت كما أنت .
فقد جفت أعراقك ،
.. متّ .
وبعد قليل تنهال عليك فؤوس الحطابين ..
و .. تهاطلت الأدمع صفراء من أشجار الارصفة القفراء ،
كانت . في آخر لحظات الاحياء !..

* * *

... وفي شارع « المالكيّ » ـ وأنت تسير وحيدا ومرتبكا بالبكاء الخفيّ ،
يطرزك الحزن : في كل عضو رصاصه .
تطلّ عليك عيون من الدم ،
تمرق ما بين ظلك والارض ..
وهي تدوّم حولك خافتة ،
وترافق خطوك دون كياسه !
.. تدير قفاك للاقاسيون وتمضي أماما ،
ووجهتك « المزة » الساكنه ..
تواكبك الطائرات الخبيثة من بعد مليون متر ،
وعشرون سيارة في الطريق حواليك ،
تثقب طبلة حلمك بالاغنيات الرخيصة ،
وهي.. تدوس على ظلك الرطب دون التفات..
فتمضي ،
تسير وحيدا ومخترقا بالنعاس ،
ومنتهكا بالسآمة والخوف حتى ..
حدود الكآبة في « الربوة » الآسنه !
و .. تمضي ،
يحاذيك نهر الشريعة .. أو ما تبقى هنالك من بردى :
كثير من النفط في الجو ،
حشد من الشجر المتهافت في الضفتين ..
له لون أسيجة في الطفولة ..
تمضي ،
حواليك ليل من الصرخات الحديدية الوقع ،
.. لم يبق منتجع تحت ظل الشجيرات للفقراء،
توقف ،
تنظر في حدة نحو بيروت !..
تعكف سنيرك ،
ترجع نحو المدينه .

... كانت لهذا الطريق قبيل ثلاثين عاما . طلاوة باب الحديقه ..
وكان له دفء عتبة بيت الطفوله ،
ولكنه الآن منقسم مرتين ،
ويفضي الى « الجسر » :
ـ شيء عجيب يقام ليحجب عن عابريه الشوارع والناس ...
ويحجب عن عابر تحته كل لون السماء ! ـ
وتبدو الحجارة ضارعة والنوافذ معتمة ..
وتبين على البعد دائرة « المرجة » قد طوقتها الحجارة والضجة المستفيقة والانحناء !..
فأين مكانك في هذه البلدة ـ المومياء ؟!

* * *

و .. يهطل مثل السواد على الارض والشرفات المضاءة والناس ،
تهبط ذرات ليل مكهربة فوق كل المصابيح ،
يعتم وجه الشوارع ،
يهرع أكثر روادها نحو غاياتهم ،
غير بعض الطيوف .. ترى من بعيد تروح وتغدو،
و .. أنت تسير وحيدا ومنتهكا بالفراغ المدوّم والخوف
لكن ، تسير ، تسير وظلك غاب !
تمرّ على منزل كان يفلت نحوك أفراحه ،
تمرّ بمقهى كنت لا تعرف النوم فيه ،
كان فيها الصحاب يغاوون أحلامهم ،
تعرّج دون اهتمام على شبه خمّارة
و .. تعاود تطوافك الحر في لا مكان
و .. يفجؤك « الصوت » من فوق خارطة خشبية :
ـ توقف ، لماذا هنا أنت ؟
ـ اني أطوّف بحثا عن الناس والارغفه !
و .. وحدك في آخر الليل ؟
ـ وحدي من أول الليل ...
ـ من أين أنت ، وماذا تريد من الناس والارغفه؟
تنظر للشرفات وتدفن كفك في قاع جيبك ..
انزع ..
ـ ولكن كفي فارغة وجيبي لا يحتوي غير احشائه ..
ـ أقول ابتعد أو ...
ـ سأمضي و .. عمت مساء !!
و .. تمضي بغير التفات ودقات قلبك تملأ كل الفراغ ..

و .. يفجؤك « الصوت » ثانية في احتدام أشد ومن خلف بوابة عربيه :
ـ توقف ، لماذا تدور هنا يا غريب ؟
ـ أنا .. من هنا وأحب الشوارع في الليل والناس تحت ضياء النهار .
ـ ولكن كل الشوارع خالية بعد منتصف الليل الا من الغرباء أو الضائعين ومن ...
ـ تعلمت منذ ازدهار الشباب التسكع في الليل، كل المدينة تصبح لي والشوارع تمنحني الحب والانطلاق ..
ـ تجاوزت حد اللياقة .
قلت : انصرف من هنا أو ..
ـ اني تجاوزت فعلا حدود الشباب
وها اني أعتذر ،
و .. عمت مساء !
تسير ،
تحاول أن تسرع الخطو في شارع جانبي ،
وتسمع دقات قلبك ، تلمح سيارة مقبله .
وتلمح قافلة من ثوابيت تطوي المسافة نحو الشروق !
ولا تتوقف سيارة الليل ،
تعدو وراء الخطى المعوله ..
وفجأة ،
تحيط بك الخطوات الغوية ،
تدرك انك طوقت بالعدسات وبالعربات وبالصوت والضوء ،
تدرك انك صودرت من فرح كان يسقط نحوك من شرفة مهمله ..
تحاول أن تتحاشى العيون وتهرب من حمرة الذعر ..
لكن كلابّة عربيه ،
تطوق في خفة معصميك ...
... فتمضي رشيقا تجوب الشوارع ،
تمضي خفيفا ، خفيفا
كأغنية ـ هلهله ..
وحولك ناس وأحصنة وطيور
و .. معجزة مقبله !!

دمشق

---

(١) العنوان ماخوذ من (سيلين) ، انه عنوان روايته الشهيرة.

(٢) يزيد وتورا فرعان من فروع نهر بردى . وهنالك اسماء اماكن وشوارع في .. دمشق .